من وحي كليلة ودمنة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



١٠

إعداد : راجي عنايت

رسوم : بهجت عثمان

من وحي كليلة ودمنة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



١٠

اعداد : راجي عنايت

رسوم : بهجت عثمان

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

من وَحي كليلة ودمنة



الثعبان المنقذ

اعداد: راجي عنايت

رسوم: بهجت عثمان

مسح ضوئي واعداد : احمد هاشم الزبيدي

٢٠١٦م



الطبعة الاولى
١٩٧٧

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ٥٤٦٠/١١
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقيًا: موكيالي - بيروت


الثعبان
المُنقذ



قبل أن يبدأ رحلة طويلة جديدة ، جلس الرحالة عبد الله مع أصحابه في بيته ، وقد جاؤوا يودعونه، قبل أن يرحل عنهم . أخذ عبد الله كعادته في مثل هذه المناسبة ، يقدم إليهم الطعام والشراب بنفسه ،ويطمئن إلى أن كل واحد منهم قد نال كفايته.

وبعد أن انتهى الطعام ، جلس عبد الله بين أصدقائه ، يشربون القهوة ، ويتبادلون أطراف الحديث . وقد دار الحديث ، كما هي العادة ، عن الرحلات التي قام ويقوم بها عبد الله إلى مختلف أنحاء الأرض وعن المغامرات التي مر بها ، والعجائب التي رآها . سأل أحد الحاضرين « ألم تشبع يا عبد الله من الترحال والسفر إلى الأماكن البعيدة ، بعد كل الذي رأيته وتحكي عنه ؟» ، أجاب عبد الله مبتسماً « في كل مرة أتصور أنها الرحلة الأخيرة .. ولكن ما أن يمضي بعض



الوقت ، حتى أجدني قد سئمت الراحة ، وتاقت نفسي إلى المغامرة .. فما تمضي عدة أيام ، حتى أكون في طريقي إلى رحلة جديدة أكتشف فيها غرائب وعجائب هذا العالم » .

وكان من بين الجالسين ، شاب صغير السن ، تردد طويلا قبل أن يسأل صاحب البيت قائلا « لو تأذن لي .. عندي سؤال أتمنى أن أسمع له جوابا .. ما هو أعظم ما رأيت في رحلاتك الطويلة المتعددة ؟» .

أطرق عبد الله صامتاً بعض الوقت ، ثم رفع رأسه وهو يقول « هذا سؤال صعب أيها الفتى .. لكنني أرى أن الانسان هو أعظم ما في هذا العالم .. لقد استطاع أن ينتصر على الطبيعة ويسخرها لصالحه ، وأن يستأنس الحيوانات ، وينتصر على المتوحش منها » .

سادت فترة من الصمت ، تأمل فيها الحاضرون كلمات صاحب البيت .. ومن أقصى القاعة ، سمع الجميع الصوت الهادىء الوقور لشيخ عجوز يقول « لا ريب أن الانسان هو سيد المخلوقات وأكملها .. لكن الايام علمتني أنني قد أجد عند الكلب من الوفاء ما لا أجده عند بعض البشر .. كما قد أجد بين الحمام من الحب والتعاطف ما لا أجده عند بعض الناس » ، صمت الشيخ قليلا يرى وقـع كلماتـه على الحاضرين ، ثم قال « لهذا يجب على الانسان في هذه الحياة أن يحسن اختيار صحبته من الناس ، حتى لا يجني شراً على ما يقدم من احسان » .

طال النقاش والجدل بين الحاضرين ، البعض يوافق على رأي الشيخ ، والبعض يميل إلى رأي الرحالة عبد الله ، حتى نهض أحد الحاضرين قائلا « يا أخوتي لقد طالت جلستنا .. وصديقنا عبد الله عليه أن يبكر غداً في الخروج إلى رحلته .. وأرى أن ننصرف الآن ، حتى ينام ويأخذ حظه من الراحة » . وهكذا ، نهض الجميع يصافحون عبد الله ، ويقبلونه ، ويتمنون له السلامة في رحلته القادمة .



في الصباح الباكر ، كان الرحالة عبد الله قد انتهى من إعداد ما يحتاجه في رحلته ، وحمله معه فوق حصانه ، وانطلق في حماس ، يذكر اسم الله ، حتى تحل البركة على رحلته .

تمضي الشهور والرحالة عبد الله يقطع المسافات الطويلة ، يحل بمدينة يستريح فيها ، ثم ينطلق مرة ثانية مستكملا رحلته يستعين بخريطة دقيقة رسمها للمواقع والمدن التي يتجه إليها . فيمر على الحدائق والمزارع الواسعة ، ويعبر المدن الكبيرة والقرى الصغيرة ، ويخترق الأنهار ، ويصعد الجبال ، ويقطع الصحاري الشاسعة التي لا يرى فيها إنساناً أو حيواناً .

وذات يوم بينما كان يقطع إحدى هذه الصحارى ، هبت عاصفة رملية عاتية ، جعلته يتوقف في مكانه ، ويغطي وجهه بشال عمامته حتى لا تعمي الرمال بصره ، أو تدخل في أنفه وفمه . كانت الرمال تضرب وجه الحصان ، فيدور حول نفسه ثائراً غاضباً ، وخاف عبد الله إن هو بقي فوق حصانه أن يرميه إلى الأرض ، فيصاب بأذى . هبط من فوق حصانه وأمسك بلجامه في يده ، وحاول أن يحمي وجه الحصان بأن يقف حائلا بينه وبين العاصفة . لكن الحصان ثار فجأة وأفلت من يد عبد الله ، ثم انطلق بعيداً وقد ابتلعته العاصفة الرملية . أخذ عبد الله يجري هنا وهناك ، يسمع صهيل الحصان وسط زئير العاصفة ولا يراه ، وطالت محاولاته دون جدوى . وعندما أحس بالتعب الشديد ، استلقى على الارض ، راجياً من الله أن يعثر على حصانه عندما تهدأ العاصفة .



كان الليل قد حل عندما هدأت العاصفة . وأنصت عبد الله عسى أن يسمع صوتاً للحصان ، فلم يكن يسمع سوى صوت أنفاسه اللاهثة من عناء الجهد الذي بذله . وفي النهاية سقط على الأرض منهكاً متعباً لا يقوى على الحركة . وما لبث أن راح في نوم عميق .

عندما أفاق عبد الله من نومه ، كانت الشمس قد طلعت . أخذ ينظر حوله فلا يرى سوى الصحراء الواسعة التي لا يظهر فيها أثر للحياة . قال لنفسه « لو استولى علي الخوف والاضطراب ، سيصيبني الجنون .. لا بد أن أفكر في هدوء ، وأتصرف بعد أن أصل إلى قرار عاقل » .

أخرج خريطته ، وأخذ يحسب المسافات والاتجاهات ، فوجد أن خير ما يفعله هو أن يتجه شرقا على الدوام ، حتى يظهر له أثر للحياة . وعلى الفور تحرك ، ينتزع قدمه من الرمال بصعوبة . وعند الظهر ، رأى عن بعد ما يشبه البئر . فتضاعف حماسه ، وقد داعبه الأمل في النجاة من بحر الرمال .

عندما وصل عبد الله إلى البئر ، وجد شيئاً يختلف عن باقي الآبار التي رآها من قبل . فتحة في الارض لا يظهر داخلها سوى الظلام الحالك . أخذ يدقق النظر ليرى اذا ما كان في قاع البئر شيء من الماء ، فسمع خليطا عجيبا من الأصوات الغريبة ، وعندما صاح « من هناك .. » . ارتفع الضجيج وتبين منه صوت آدمي يقول « النجدة .. أنقذونا من هذا الجحيم !» . وفي نفس الوقت سمع عبد الله أصواتا أخرى ، كأنها صادرة من غابة مليئة بالوحوش . خلع عبد الله بعض ملابسه وصنع منها حبلا متينا ، أسقط طرفه في ظلام البئر ، وأخذ


یارب

يجذب الطرف الآخر وهو يشعر أن الآدمي قد تعلق بالحبل .

فجأة ظهرت نهاية الحبل الاخرى ، وقد تعلق بها قرد كبير . كانت دهشة عبد الله كبيرة .. وأخذ يسأل القرد الذي ارتمى على الأرض « ماذا تفعل داخل البئر ؟. » ، والقرد لا ينطق ، ويشير إليه أن يدلي الحبل إلى البئر مرة ثانية .

توالت المفاجآت على عبد الله ، فبعد القرد صعد إلى خارج البئر نمر ضخم ارتمى إلى جانب القرد ، وبعده ظهر ثعبان طويل . سألهم عبد الله « ولكني سمعت صوت آدمي » ، فأشاروا إليه أن يدلي الحبل في البئر . في هذه المرة ظهر رجل عند فتحة البئر ، وارتمى على الرمال يحمد الله على النجاة .



عندما هدأت أنفاس الرجل واستراح ، سأله عبد الله « من أنت ؟.. وما هي حكايتك مع هذه الحيوانات ؟. وما الذي أبقاكم في البئر ؟.. » . قال الرجل « أنا صائغ شهير من المدينة الكبيرة التي تقع خلف الغابة القريبة .. كنت في طريق عودتي من رحلة تجارية أشتري فيها سبائك الذهب والمجوهرات ، هاجمنا اللصوص ، ثم هبت علينا


يا منجي من المهالك

العاصفة ، فتفرقنا .. وعندما رأيت البئر .. فرحت ، وظننت أن به ماء ، وانحنيت فوق حافته الملساء ، فوجدت نفسي أسقط داخله .. وعندما تعودت عيناي على الظلام ، رأيت معي هذا القرد وهذا النمر وهذا الثعبان » ، قال الصائغ هذا وهو يشير إلى الحيوانات المرتمية قريباً منه واحداً واحداً .

أحس عبد الله بالتعب ، فارتمى إلى جانب الرجل وهو يسأل « وماذا فعلت بعد ذلك ؟.» . قال الصائغ « صرخت من فرط الرعب .. فقال الثعبان لا تخف .. فنحن جميعا أصابتنا محنة واحدة ، وسقطنا إلى البئر بنفس الطريقة ، وقد اتفقنا فيما بيننا على أنه لا فائدة من أن يعتدي أحدنا على الآخر ونحن في هذه المحنة .. والأفضل أن نتعاون معاً ، وأن نصيح بأعلى صوتنا جميعاً فربما سمعنا من يمر بالصحراء ، فينقذنا .. وعندما سألت الثعبان لماذا لا تخرج أنت وتأتي بمن ينقذنا ؟. قال إنه حاول وفشل ، فجدار البئر شديد النعومة ، لا يستطيع الزحف عليه » .

عندما انتهى الصائغ من كلامه ، نهض وأخذ يتطلع حوله ، ثم قال « سأسرع الآن إلى المدينة قبل أن تغرب الشمس ، فهل تقوى على المشي معي .. » ، كان عبد الله منهكا لا يقوى على السير ويشعر بالجوع والعطش ، فنظر إلى الصائغ وقال بصوت خافت « أنا متعب ، وجوعان

وعطشان .. ولا أقوى الآن على السير .. لماذا لا ننتظر إلى الغد ؟. فربما ساعدتني الراحة على المشي » . قال الصائغ « لا بد لي أن أكون في المدينة اليوم ، فلا ريب أن أهلي قد قلقوا لغيابي » . تقدم القرد من الصائغ وقال له « اذهب أنت .. وسأمضي الآن إلى الغابة ، فآتي له بالطعام والشراب ، وغداً صباحا أقوده إلى الغابة القريبة من المدينة » . وافق الصائغ وطلب من عبد الله أن يمر عليه ببيته في المدينة .

انصرف الصائغ ، ونهض النمر قائلا « سأمضي الآن إلى الغابة وأرجو أن تزورني غدا ، لأكرر لك شكري على إنقاذي » . أما الثعبان فقال « ليس لي مكان أدعوك إليه .. فأنا أنتقل من مكان إلى مكان .. لكن تأكد أنني سأكون إلى جانبك ، اذا ما احتجت يوما إلى مساعدة » ، شكرهم عبد الله فتفرقوا جميعاً وتركوه ليستريح .

عندما عاد القرد كان يحمل الوفير من الطعام والماء ، فأكل عبد الله وشرب ، ثم نام نوماً عميقاً هادئاً .. والقرد يجلس إلى جواره ، يحرسه ويرعاه . وفي الصباح سارا بهمة ونشاط في اتجاه الغابة .



جلس ملك المدينة في قصره حزيناً صامتاً ، فقد اختفت ابنته الجميلة الصغيرة منذ عدة أيام .. كانت الأميرة الصغيرة تعشق الطبيعة ، وتسعد برؤية الطيور ، وتستمتع بمشاهدة الأشجار والأنهار . كانت تقول لوالدها الملك « أنا لا أطيق البقاء في هذا القصر ، بعيداً عن الطبيعة .. وأتمنى أن أستبدل هذا القصر بكوخ صغير عند مشارف الغابة ، يسمح لي بتأمل الطبيعة كل صباح ومساء » . وكان الملك يقول لها مندهشا « لديك حديقة القصر بكل ما فيها من أشجار وطيور وحيوانات أليفة » ، فكانت تبتسم وتقول « حديقة القصر مرتبة وجميلة أيضا ، لكني لا أشعر بالسعادة الحقيقية إلا عندما أتأمل الطبيعة .. وأمد بصري فلا أرى سوراً ، كالسور الذي يحيط بهذا القصر .. » .

أمام إلحاح الأميرة ، وافق الملك على أن تخرج في جولة يومية في حراسة عدد من الجند ، خوفاً من هجوم الوحوش عليها . وذات يوم رأت فراشة جميلة ، فأخذت تجري لتلحق بها ، كان الجند يسرعون خلفها ، غير أنها اختفت عن أعينهم وسط الأعشاب والنباتات المتشابكة .

في ذلك اليوم بقي الجند حتى مغيب الشمس يبحثون في جميع أنحاء الغابة دون جدوى . وعندما وصل الخبر إلى الملك ، انزعج انزعاجاً شديداً ، ونزل من قصره إلى الغابة يبحث معهم ، دون فائدة .. وظل

الجنود يبحثون عن الاميرة المفقودة كل يوم صباحاً ومساء لمدة شهر كامل . ومع مرور الأيام ، تسلل اليأس إلى نفس الملك ، وأوقف البحث ، بعد أن أعلن عن جائزة كبيرة جداً ، لكل من يأتي بالأميرة ، أو بأي أثر من ملابسها أو حليها .



عندما وصل الرحالة عبد الله إلى الغابة شكر القرد ، فقال القرد محتجا « كيف تشكرني ، وأنت الذي أنقذت حياتي .. الشكر كل الشكر لك » ، فمضى عبد الله إلى النمر ، ففرح به ، وقدمه إلى أهله ، وقبل أن يذهب عبد الله إلى المدينة ، اختلى به النمر ، وقدم إليه بعض المجوهرات الثمينة ، وقال له « أرجو أن تقبل مني هذه الهدية المتواضعة التي وجدتها في بقايا وليمة من ولائم الأسود .. أنا لا أنتفع بها ، ويقال أن لها قيمة كبيرة في المدينة » .

شكره عبد الله ، وودعه منصرفاً إلى المدينة . وهناك بحث عن بيت الصائغ ، حتى وصل إليه . كان بيت الصائغ جميلا نظيفا يقف حارس على بابه . سأله الحارس « ماذا تريد ؟.. » . قال عبد الله « أريد أن أقابل الصائغ » . قال الحارس « ومن أنت ، ما اسمك ؟. » . قال عبد

الله « قل له صاحبك الذي التقيت به عند البئر » ، ومضى الحارس وهو يتعجب من هيئة الرجل وكلامه ، وما لبث الحارس أن عاد ليقود عبد الله إلى حيث الصائغ .

داخل البيت الجميل ، أخذ الصائغ يسأل عبد الله عما مر به من أحداث حتى وصل إلى المدينة . فقص عليه ما كان من أمر القرد والنمر ، ثم أخرج الحلي من جيبه قائلا « أرجو أن تبيعها لي ، حتى أجهز نفسي بثمنها ، وأواصل رحلتي » . فوجد الصائغ ينظر إلى الحلي باهتمام كبير . قال للصائغ « اطمئن ، فهي ليست مسروقة ، لقد وجدها النمر بين بقايا طعام بعض الأسود ، فهي ليست ملكا لأحد » .

طلب الصائغ من خدمه أن يقدموا الطعام لعبد الله ، بينما انصرف هو قائلا « تناول طعامك واسترح ، حتى أبيع لك هذه الحلي وأعود » .



بعد قليل ، كان الصائغ يقف بين يدي الملك ، يعرض عليه الحلي التي أخذها من الرحالة عبد الله ، وهو يقول « مولاي لقد عثرت على المجرم الذي قتل الأميرة ، وسرق حليها ، وبمجرد ما عرض علي الحلي عرفتها ، فأنا الذي صنعتها ، وما زلت أذكرها » . اكتسى وجه الملك


عز من قنع

بالحزن ، وسأل « ومن هو الذي فعل هذه الجريمة الوحشية » . قال الصائغ « رجل رحالة يدعى عبد الله .. حبسته في بيتي ، حتى يرسل مولاي جنده للقبض عليه .. وقد عرفت أنه كان مقيما بالغابة قبل أن يدخل المدينة » .

نادى الملك على جنده ، وأمرهم بأن يتوجهوا إلى بيت الصائغ للقبض على المجرم ، والقائه في السجن . ثم قدم الملك كيسا كبيرا من النقود للصائغ ، مكافأة له على تعرفه على المجرم .

كان الرحالة عبد الله يستلقي مستريحا في انتظار الصائغ ، وكانت دهشته كبيرة ، عندما وجد الباب يفتح على مصراعيه ، ويندفع منه الجند للقبض عليه ، أخذ يشرح لهم أنه ضيف صاحب البيت ، وأنهم لا ريب يطلبون شخصا آخر ، وأن في الموضوع اختلاطا . لكن دهشته كانت أشد ، عندما رأى الصائغ يدخل خلفهم ، ويصيح فيه « أسكت أيها المجرم ، واذهب معهم لتنال جزاء جريمتك الشنيعة » . وعندما انصرف الجند يجرون عبد الله ، أخرج الصائغ كيس النقود الذي أخذه من الملك ، وأخذ ينظر إلى ما به ، في جشع وشراهة .




وما بكم من نعمة فمن الله

رقد الرحالة في سجنه حزينا ، لا يعرف حقيقة ما جرى ، وما هي الجريمة التي ارتكبها ؟ ؟ ، ولماذا يصفه الصائغ بالمجرم ويسبه ، بعد أن أنقذ حياته وأخرجه من البئر ؟. وبينما هو كذلك ، سمع حفيفا داخل حجرته بالسجن ، فانتفض ناهضاً في ذعر ، وهو يرى ثعباناً كبيراً يقترب منه ، وهم بأن يصيح طالبا النجدة ، لكن الثعبان أسرع يقول « ألم تعرفني ؟.. أنا الثعبان الذي أنقذته من البئر .. عندما أحسست أنك في خطر أسرعت إليك ، كما وعدتك من قبل » .

اطمأن عبد الله ، وعاد إلى الجلوس ، فقال الثعبان « لقد وضعت خطة لانقاذك من مكيدة الصائغ الجشع .. يجب أن تطمئن إلى حين أن أعود إليك غدا ، وأحكي لك تفاصيل خطتي » . وقبل أن يتكلم عبد الله كان الثعبان قد اختفى ، في شق بالأرض .

كان الملك يجلس مع وزيره يقول له « قبل أن تقتل المجرم السجين ، يجب أن تسأله وتعرف منه كل تفاصيل جريمته ، فربما تكون الأميرة قد هربت منه بعد أن أخذ حليها » . وقبل أن يجيب الوزير ، أقبلت جارية تبكي وتصيح « أدركنا يا مولاي .. أنقذ الأمير الصغير ، لقد لدغه الثعبان » .

تحول هدوء القصر إلى صياح وضجيج ، وأسرع رجال القصر يطلبون كل أطباء المملكة ، لكنهم فشلوا جميعا في وصف دواء ينقذ


الصبر جميل

الأمير ، وقالوا « غاية ما نستطيع أن نفعله ، هو أن نخفف الألم عن الأمير ، ونمد له في حياته فربما وصلنا إلى علاج » .

بعد أن انصرف الجميع ، وتركوا الأمير ليستريح ، خرج الثعبان من مخبئه ، واقترب من سرير الأمير ، وهو يقول في أذنه « تذكر !! علاجك الوحيد عند رجل يسمى عبد الله تجدونه في السجن » . وقبل أن ينصرف الثعبان تماماً كان الأمير يصيح « أبي .. أبي .. » ، وأسرع الجند ينادون الملك ، فقال له الأمير « لقد زارني طيف ، وقال إن علاجي عند سجين يدعى عبد الله » .

في نفس الوقت كان الثعبان يتحدث إلى عبد الله ، بعد أن ألقى إليه ببعض الأعشاب « بعد قليل ، يطلبونك في قصر الملك لتداوي الأمير ، ضع هذا العشب في الماء ، وأسقه للأمير يشفى ، وساعتها يمكنك أن تقول الحقيقة للملك » .

حدث نفس ما قاله الثعبان ، وبعد أن تحسنت صحة الأمير ، قال الملك لعبد الله « أطلب ما تشاء ، وثق أنني سأحققه لك » . قال عبد الله « ليس لي من مطلب سوى أن تعرف الحقيقة » . وحكى له القصة كاملة . فتم القبض على الصائغ الجشع ، وجهز الملك للرحالة عبد الله قافلة كاملة يواصل بها رحلته .

ساعتها ، تذكر عبد الله قول الشيخ العجوز عندما قال إن بعض البشر أكثر شراً من الوحوش ، ثم قال لنفسه « ولكنهم بفضل الله ينالون عقابهم » .